مختارات من الخطب المنبرية الرمضانية

الحث على الاجتهاد في العشر الأواخر

لمعالي الشيخ العلامة

صالح بن فوزان الفوزان

عضو هيئة كبار العلماء وعضو اللجنة الدائمة للإفتاء

الحث على الاجتهاد في العشر الأواخر[1]

الحمد لله ربِّ العالمين، أمرَ بالمسارعةِ إلى الخيرات، واغتنامِ الأوقات قبلَ الفوات، وأشهدُ أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له في ربوبيته وإلهيته وماله من الأسماء والصَّفات، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، أوَّلُ سابق إلى الخيرات ﷺ وعلى آله وصحبه وأصحابه ذوي المناقب والكرامات، وسلَّم تسليمًا كثيرًا، أمَّا بعد:

فيا أيَّها النَّاس: اتقوا الله تعالى، واعتبروا بسرعةِ مرور اللَّيالي والأيام، واعلموا أنَّها تحسب من آجالكم، وأنَّها خزائن لأعمالكم، فأودعوا فيها من الأعمال ما يسركم عند الحساب، يوم يقال للمحسنين: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]، لا تُودعوا فيها ما يسوؤكم ويُحزِنُكم يوم يقول المفرِّطُ والمضيِّعُ: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾[الفجر: ٢٤].

واعلموا عبادَ الله، أنَّكم الآنَ تعيشون في أفضل الأيام من شهر رمضان، فقد استوفيتم العشرين الأُوَّل منه، وها أنتم في العشر الأواخر، فمن كان محسنًا من أوَّل الشَّهر فليستمرَّ على إحسانهِ، وليضاعِفْ من اجتهادِهِ في هذه العشر المباركة ليزداد خيرًا على خير، وليغنم فضيلة هذه الأيام الَّتي تمتاز على الأيام السَّابقة، ومن كان مفرطًا فيما مضى من الشَّهر فليستدرك بقيَّته، وليتُبْ إلى الله من تفريطه وغفلته، لعلَّ الله يغفر له ما سلف ويوفِّقه فيما بقي؛ لأنَّ الأعمال بالخواتيم.

عبادَ الله، إنَّ هذا الشَّهر يختلف عن غيره من الشُّهور، وإن كانت حياة المسلم كلّها فرصةً عظيمةً، ودرَّةً نفيسة لا تقدَّرُ بقيمة، لكن هذا الشَّهر خصَّه الله بفضائل، وشرع فيه أعمالًا لا توجد في غيره، فأوجب صيام نهاره، وجعله أحد أركان الإسلام، واختصَّ الصَّوم لنفسِه من بين سائر الأعمال، فقال: «الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ»[2]، فخَصَّ سبحانه الصِّيام بميزتين عظميتين:

الأولى: إضافته إلى نفسه حيث قال سبحانه: الصَّوْمُ لِي، وهذه الإضافةُ تقتضي تشريف الصِّيام.

(١) مصدرها موقع مؤسسة الدَّعوة الخيرية قسم الخطب.

(٢) سبق تخريجه.

الثانية: أنَّه سبحانه هو الَّذي يتولى جزاءَ الصَّائم، وذلك يقتضي عِظَمَ ثَوَابِهِ وكثرتَه، كثرةً لا يعلم مقدارها إلَّا الله.

وشَرَعَ سبحانه في هذا الشَّهر القيامَ في لياليه بصلاةِ التَّراويح جماعةً في المساجد، وأخبرﷺ أنَّ: «مَن قَامَ مَعَ الإِمَامِ حَتَّى يَنْصَرِفَ كُتِبَ لَهُ قِيَامُ لَيْلَةٍ»، و«مَن قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ» متفق عليه، وهكذا نرى أنَّ أوقات هذا الشَّهر مشغولةٌ بالعبادة، فنهاره صيام، وليله قيام، وذلك ليجتمعَ للمؤمن جهادان:

الجهاد الأول: جهادٌ لنفسِه بالنَّهار على الصِّيام.

الجهاد الثاني: جهادٌ لها باللَّيلِ على القيام.

الجهادُ يحتاج إلى صبرٍ، ولهذا سُمِّي هذا الشَّهر شهر الصَّبر، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[الزمر: ١٠]، فمن جمع هذين الجهادين، وصَبَرَ عليهما وُفِّيَ أجْرهُ بغير حساب، أمَّا الَّذي يترك صلاة التَّراويح تكاسلًا، فقد عَطَّلَ اللَّيل مما خُصَّ به، ولم يَصْبِر على أحدِ الجهادين، وحرم نفسه من هذا الأجر العظيم، فليتنبه لذلك أناسٌ لا تراهم يصلون التَّراويح طول الشَّهر أو في أكثر اللَّيالي، وإن صلوا في بعض اللَّيالي لم يُكملوا ويواصلوا في بقيتها حتَّى يستوفوا قيام رمضان .

وشَرَعَ سبحانه في هذا الشَّهر المبارك الإكثار من تلاوة القرآن، قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾[البقرة: ١٨٥]فاختصاص إنزاله في هذا الشَّهر يقتضي اختصاصه بفضل التِّلاوة فيه؛ ولهذا كان النَّبيّ ﷺ يَخُصُّ هذا الشَّهر بمزيد من تلاوة القرآن، ففي الصَّحيحين[٣]: «أَنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامَ كَانَ يَلْقَى النَّبِيَّ ﷺ كُلَّ لَيْلَةٍ مِن شَهْرِ رَمَضَانَ، فَيُدَارِسُهُ القُرْآنَ»، فجبريلُ أفضل الملائكة، ومحمَّد أفضلُ الرُّسل يتدارسان بينهما أفضل الكتب في هذا الشَّهر الَّذي هو أفضل الشَّهور، مما يدُلُّ على أفضلية التِّلاوة فيه، على التلاوة في غيره من الشُّهور، وإن كانت التَّلاوة مطلوبة في كلِّ وقت وفيها أجر عظيم، لكن أجرها يتضاعف في هذا الشَّهر أكثر من غيره، كما تدل مدارسة جبريل للنَّبيّ ﷺ على استحباب عرض الإنسان

(٣) من حديث ابن عباس أخرجه البخاري برقم(٦، ٣٥٥٤) واللفظ له، ومسلم(٢٣٠٨).

حفظَه للقرآن على من هو أحفظ له منه ليستفيد من إتقانه وقراءتِه.

وتلاوة القرآن في رمضان تشمل تلاوته في صلاة التَّراويح، وصلاة التَّهجد، وتلاوته من غير صلاة، وقد كان الصَّحابة يطيلون القراءة في صلاة التَّهجد، فكان القارئ منهم يقرأ بالمائتين في الركعة، حتَّى كانوا يعتمدون على العصي من طول القيام، وإنَّما ذكرنا هذا ليقتنع الَّذين ينفرون من إتمام الصَّلاة ويستثقلونها.

وإذا كان للإمام أن يراعي أحوال المأمومين فليس معنى هذا أنَّه ينقر الصَّلاة ويهُزُّ القراءة هذًّا يخل بها، وإنَّما المراد التَّوسط الَّذي يجمع بين إتقان الصَّلاة وعدم المشقة على المأمومين، مع القراءة المتقنة الَّتي يستفيد منها المأموم، وتؤثر على القلوب، وأن تكون الصَّلاة معتدلة متساوية من أوَّل الشَّهر إلى آخره؛ لأنَّ بعض أئمة المساجد يسرع في القراءة، ويطيل الصَّلاة في أوَّل الشَّهر إلى أن يختم القرآن، فإذا ختمه تساهل بالقيام في بقيَّة ليالي الشَّهر الَّتي هي من أفضل لياليه، والَّتي هي ختامه، وبعضهم يسافر في هذه اللَّيالي للعمرة ويترك مسجده، مع أن بقاءه في مسجده وإتقانه لصلاته في كلِّ ليالي الشَّهر أفضل له من العمرة.

وليس المقصود من التَّراويح والتَّهجد في رمضان هو ختم القرآن وقراءة الدُّعاء المعد للختم، وإنَّما المقصود شغل ليالي هذا الشَّهر كلّها بالقيام، والختمة تابعة وليست مقصودة، فلو لم يختم القرآن مع إتقانه للصَّلاة في جميع اللَّيالي مع النِّية الصَّالحة، فأجره تام إن شاء الله، ولو ختم القرآن مع الإخلال بالصَّلاة والقراءة أو مع ترك بقية اللَّيالي، فأجره ناقص بحسب نقص العمل.

ومما شرعه الله في هذا الشَّهر المبارك زيادة الاجتهاد في العشر الأواخر منه؛ لأنَّها ليالي الإعتاق من النَّار لمن استحقوا دخول النَّار إذا تابوا من ذنوبهم واجتهدوا في هذه اللَّيالي الَّتي كان اجتهاد النَّبِيّ ﷺ يتزايد فيها، فكان يحييها بالتَّهجد والقيام، وكان يعتكف في المساجد للتفرغ لعبادة في هذه اللَّيالي والأيام.

ففي الاجتهاد فيها اقتداءٌ بالنَّبِي ﷺ وعملٌ بقوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١] أي: العمل في هذه اللَّيلة خير من العمل في ألف شهر ليس

فيها ليلة القدر، وقال ﷺ: «مَن قَامَ لَيْلَةَ القَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِه»، وقيامها إنَّما يحصل يقينًا بالقيام في كلِّ ليالي الشَّهر، ولا سِيَّما ليالي العشر الأواخر، فهي أرجى لتحريها وآكد لموافقتها، فهي لم تحدد في ليلة معيَّنة من الشَّهر؛ لأنَّ الله سبحانه أخفاها؛ لأجل أن يكثر اجتهاد العباد في تحريها ويقوموا ليالي الشَّهر كلّها لطلبها، فتحصل لهم كثرة العمل وكثرة الأجر، وليتميز المجدِّ من الكسلان، فاجتهدوا رحمكم الله في هذه العشر الَّتي هي ختام الشَّهر، وأيام الإعتاق من النَّار، كما في حديث: «أَوَّلُهُ رَحْمَةٌ وَأَوْسَطُهُ مَغْفِرَةٌ وَآخِرُهُ عِتْقٌ مِن النَّارِ»(٤).

فالمسلم الَّذي وفقه الله للعمل في هذه الشَّهر، ومرت عليه مواسم الرَّحمة والمغفرة والعتق من النَّار، وقام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا حري أن يفوز بكل خيرات هذا الشَّهر ونفحاته، فينال الدَّرجات العالية، بما أسلفه في الأيام الخالية.

ولقد كان النَّبيّ ﷺ يخص العشر الأواخر من رمضان بأعمال يعملها فيها: منها: إحياء لياليها بالتَّهجد والقيام، ومنها: أنَّه كان يوقظ أهله للصَّلاة وكلّ صغير وكبير يطيق الصَّلاة، وهذا شيء أهمله اليوم كثيرٌ من النَّاس مع أهلهم وأولادهم فيتركونهم يسهرون على اللَّعب واللَّهو يسرحون في الشوارع أو يجلسون في البيوت يشاهدون الأفلام والمسلسلات، ويستمعون الأغاني والمزامير طيلة ليالي رمضان، فلا يستفيدون منه إلَّا الآثام، وإذا جاء النَّهار ناموا حتَّى عن أداء فرائض الصَّلوات؛ لأنَّهم تربوا على عدم احترام رمضان، وهذا نتيجة إهمال أوليائهم، فبئست التَّربية وبئست الولاية، وسيسألهم الله يوم القيامة عن إهمال رعيتهم، وإضاعة مسؤوليتهم قال ﷺ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَن رَعِيَّتِهِ»(٥).

ومن الأعمال الَّتي كان ﷺ يختص بها العشر الأواخر: الاعتكاف: وهو لزوم المسجد للعبادة، وعدم الخروج منه إلَّا لحاجة ضرورية، ثُمَّ يرجع إليه، كان ﷺ يعتكف في هذه العشر قاطعًا لأشغاله، وتفريغًا لباله، وتخليًّا لمناجاة ربِّه وذكره ودعائه، فاجتهدوا رحمكم الله في هذه العشر الَّتي هي ختام الشَّهر، والَّتي هي أرجى ما يكون لموافقة ليلة القدر، وأكثروا من الجلوس في المساجد للذِّكر، وتلاوة

(٤) سبق تخريجه.

(٥) متفق عليه من حديث ابن عمر أخرجه البخاري برقم(٨٩٣) ومسلم برقم (١٨٢٩).

القرآن إذا لم تتمكنوا من الاعتكاف: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴾[آل عمران: ١٣٣ - ١٣٦]. أقول قولي هذا: وأستغفر الله لي ولكم ولجميع المسلمين من كلِّ ذنب فاستغفروه إنَّه هو الغفور الرَّحيم.

أيُّها النَّاس: اتقوا الله تعالى، عبادَ الله، كان السَّلف الصَّالح يجتهدون في إتمام العمل وإكماله وإتقانه، ثُمَّ بعد ذلك يهتمون بقبوله ويخافون من رده، كما قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴾[المؤمنون: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿ يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧].

وبعض النَّاس اليوم على عكس هذا، فمنهم من لا يُتَمِّمُ العمل، فقد رأينا مَن ينشطون في أوَّل الشَّهر، ويفترون في آخره، حتَّى رُبَّما يكسلون عن صلاة الجماعة، هؤلاء لا يستفيدون من رمضان، ولا يتغيَّرُ حالهم عمَّا كانوا عليه قبله من الإساءة والعصيان، والَّذي تفوته المغفرة في رمضان يكون محرومًا غاية الحرمان، فقد صَعِدَ النَّبي ﷺ المِنْبَرَ فَقَالَ: «**آمِينَ آمِينَ، آمِينَ**» فَقِيلَ: يَا رَسُولَ الله إِنَّكَ صَعِدْتَ المِنْبَرَ، فَقُلْتَ: آمِينَ، آمِينَ، آمِينَ؟ فَقَالَ: «**إِنَّ جَبْرَئِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَتَانِي فَقَالَ: مَن أَدْرَكَ شَهْر رَمَضَان فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ فَدَخَلَ النَّار، فَأَبْعَدَه الله، قُلْ: آمين، فَقُلْتُ: آمين**»(٦).

ومنهم من يسهر اللَّيل على لغو الكلام أو جمع الحطام، وينام على النَّهار عن أداء الصَّلوات في أوقاتها مع الجماعات، مع الأمن من عقاب الله، فأكثروا عباد الله من التَّوبة والاستغفار في هذه الأيام، لتختموا بذلك شهركم وتستدركوا به تقصيركم، فإنَّ الاستغفار ختام الأعمال الصَّالحة كلّها، فتختم به الصَّلاة، والحج، وشهر رمضان، وقيام اللَّيل، وتختم به المجالس، والله قد أمر بالاستغفار، ووعد المستغفرين بالمغفرة إذا كان استغفارهم صادقًا، ولم يكن استغفارًا باللِّسان فقط .

(٦) سبق تخريجه.

فاتقوا الله، عباد الله، ولا تؤمنوا العقوبة، ولا تقنطوا من الرحمة واعتصموا بكتاب ربكم وسنة نبيكم.

واعلموا أنَّ خير الحديث كتابُ الله، وخير الهدي هديِّ محمَّد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكلّ بدعة ضلالة،وعليكم بالجماعة، فإنَّ يد الله على الجماعة، ومن شذَّ شذَّ في النَّار.

ثُمَّ اعلموا أنَّ الله أمركم بأمر عظيم، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٦] اللَّهُمَّ صلِّ وسلِّم على عبدِك ورسولِك نبيِّنا محمَّد، وارضَ اللَّهُمَّ عن خُلفائِه الرَّاشدين، الأئمة المهديين، أبي بكرٍ، وعمرَ، وعثْمَانَ، وعليٍّ، وعَن الصَّحابة أجمعين، وعن التَّابِعين، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّين.

اللَّهُمَّ أعزَّ الإسلام والمسلمين، اللَّهُمَّ أعزَّ الإسلام والمسلمين، اللَّهُمَّ أعزَّ الإسلام والمسلمين، وأذل الشِّرك والمشركين، ودمر أعداء الدِّين،

واجعل هذا البلدَ آمنًا مطمئنًا، وسائر بلاد المسلمين، يا ربّ العالمين.

اللَّهُمَّ بارك لنا في شهر رمضان، اللَّهُمَّ أرزقنا فيه القوة، والاحتساب، العمل الصَّالح، اللَّهُمَّ أعنَّا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، اللَّهُمَّ ارزقنا من فضائله ومغانمه ما يسرته لنا، اللَّهُمَّ أعنَّا على صيامه وقيامه وحفظ أيامه من الخلل والضياع: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة:١٢٢].

اللَّهُمَّ أصلح ولاة أمورنا واجعلهم هداة مهدين غير ضالين ولا مضلين، اللَّهُمَّ أصلح بطانتهم، وأبعد عنهم بطانة السُّوء والمفسدين يا رب العالمين.

عبادَ الله، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾[النحل:٩٠، ٩١] فاذكروا اللهَ يذكُرْكم، واشكُروه على نعمِه يزِدْكم، ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٥].